وفاة فخامة الرئيس شكري بك

بعد الوحدة، مرض فخامة الرئيس وهو خارج سورية واشتدّ به المرض، فاختاره ربّه لجواره راضيا مرضيًا. ونقل جثمانه الطاهر إلى وطنه دمشق بمجال الأبّهة الشعبيّة والحسرة والألم على الخسارة الجسيمة التي منيت بها البلاد. رحم الله الرئيس الجليل وأكرم مثواه وأسكنه فسيح جنانه.

وها هي الدرّة الفريدة التي فاه بها دولة رئيس مجلس الوزراء بنصّها الكامل، أنقلها هنا للذكرى والتاريخ :

«أيّها الإخوة المواطنون

أرأيت إلى إشراقة الفجر، ونشوة النصر، وأريج الزهر، وعذوبة الفرج بعد الصبر ؟

أرأيت إلى النور في هداه، وإلى الصبّ يترقّب مناه، وإلى النسر في علاه ؟

أرأيت إلى الأمل الباسم، والإيمان الملازم، والعلم القائم، واليقين الدائم ؟

أرأيت إلى البطل في تواضعه، وإلى الأبيّ في تمنّعه، وإلى العزيز في ترفّعه ؟

أرأيت إلى المجاهد في بلائه، ويأسه ورجائه، وصبره ومضائه، وابتسامته وبكائه ؟

أرأيت إلى الزعيم في قياده، وسهره ووجده، وقربه وبعده، وكبريائه ومجده ؟

أرأيت إلى الرئيس في دسته، يقرب الصغير، ويحترم الكبير، ويعالج من الأمور الحقير والخطير ؟

أرأيت إليه ظاعنا لا يؤوده هجران، ولا يونسه نكران، ولا يبهره إحسان، ويمرّ عليه الجديدان، وهو يطلب لأعدائه الغفران، ولأمّته علاء الشان ؟

أرأيت إلى الرئيس يضرب المثال، البعيد المنال، فيبلغ ذروة الكمال، في قدوة الأجيال؟

أرأيت إلى شكري القوتلي ؟

عرفته قبل ستّة وثلاثين عاما، وكنت وإيّاه في ميعة الصبا وشرخ الشباب، فعرفت رجلا ولا كالرجال، ملأ منّي النفس والقلب والعقل جميعا.

عرفت أنّه اشترك في تأسيس الجمعيّات السريّة أيّام العثمانيّين، وأنّه افتدى إخوانه، وهو في السجن، فحاول الانتحار، حذر الإضرار بهم، وأنّه أحد رجال السرّ أيّام فيصل الأوّل، الذي لم يقطع في سياسة الدولة برأي من دونهم، وأنّه وحده الذي فكّر بالاتّصال بعاهل الجزيرة العربيّة عام **١٩٢٢**، فأرسل إليه بضعة من شباب العرب وكهولهم، بعد أن زوّدهم بحر ماله، لينسّقوا معه سياسة حرّيّة العرب.

وأخذت الأيّام تجلو مزاياه وتكشف عن سجاياه، إلى أن كانت الثورة السوريّة عام **١٩٢٥** فكان علما من أعلامها، ورائدا من روّادها، وعاد بعدها إلى وطنه يهتمّ بالاقتصاد، إلى جانب اهتمامه بحقّ البلاد في الحرّيّة والاستقلال.

وكانت حوادث عام **١٩٢٦** فكان نائبا لرئيس الكتلة الوطنيّة يصرف الأمور في غياب الوفد السوريّ بكثير من الحكمة والرشد. وتولّى وزارة الماليّة، فشهد له أعداؤه الفرنسيّون بالقوّة والصلابة، ولمّا لحظ في الخطّة التواء، ومن الفرنسيّين نكولا، استقال يرقب الأمور، فإذا تحقّق ظنّه وقلبت فرنسا للبلاد وأمانيها ظهر المجن، استعاد قواه، وجمع نشاطه، وأخذ في أشدّ الظروف ظلما وظلاما يعمل بخطّة أحكمها وسدّد خطاها، فبدأ بمذكّرة

قدّمت إلى المفوّض السامي يطالب فيها بالافراج عن المعتقلين السياسيّين الذين امتلأت بهم السجون، فلم يجد لندائه جوابا، فجمع الناس لتأكيد هذا المطلب، فإذا بهم يلبّون من كلّ حدب وصوب، ممّا أدهش الفرنسيّين وأذهلهم، وحملهم على الانحناء، وكلّل مسعاه النبيل بالنجاح.

وهكذا أطلّ على الناس وجه كريم، التفّوا حوله، ورأوا فيه المنقذ لما هم فيه، واجتمع القريب والبعيد، وبويع بالزعامة، ودلف إلى كرسيّ الرئاسة الأولى، والأبصار إليه شاخصة، والدعاء له ينبع من أعماق كلّ قلب.

ثمّ توالت الأحداث التي نعرفها جميعا، وكان أبرزها أن حقّق الله الرجاء، وبلغه مناه، فتحقّق في أيّامه الجلاء والوحدة وكان بطلهما.

سيّدي الرئيس،

ليس هذا تاريخا، ولا شيئا يشبه التاريخ، ففي كلّ يوم من أيّام حياتك، لك آية لله على خلقه في أنّ الإيمان لبالغ بأهله ما يريد ويريدون، ولو كره الجاحدون.

سيّدي الرئيس،

ليس هذا الذي أقوله تكريما لك، ولا ثناء عليك، وإنّما هو جزء من إحسانك لأمّتك، وخدمتك لها، وقيامك على مصالحها.

سيّدي الرئيس،

ليس هذا التكريم، مهما تعدّد، موفيك حقّك، فلقد كنت وما زلت غنيّا عنه، لأنّك دخلت التاريخ من بابه العريض، وستبقى له حديثا طويلا، ما قامت القوميّة العربيّة.

سيّدي الرئيس،

ليس بيان الأدباء، ولا سحر الشعراء، ببالغ على ما أوتي من البلاغة، ما يحمل العرب لك، في جميع أقطارهم وأمصارهم، من الشعور بعرفان الجميل، ومن تقديس إنكار الذات، ومن الإعجاب بحسن البلاء، ذلك أنّك سموت فبلغت السماك، ولم يساوك أحد في علاك، فكنت بحرا لا يساحل، وجبلا لا يطاول. وهذا الجيل العربيّ المعاصر يرنو إليك مبهور الأنفاس، ثائر الإحساس، كثير التفاؤل في مستقبل الأمّة العربيّة المشرق الآفاق، عميق الثقة بكيانها المبدع الخلّاق، لأنّك شرّعت للناس، فيما شرّعت، طريقا سيعمل على سلوكه الأخلاف وسيقرب شقّة الخلاف، مهما تناءت الديار، أو عصفت الأعصار، وستمتدّ ألسنة النار، شديدة الأوار، لتلتهم آثار البغي والاستعمار، حيثما قامت للعرب أقطار وأمصار، مسترشدة بهداك، متأثّرة خطاك، مستوصية تضحيتك وفداك، وها هو اسمك الحبيب الكريم النبيل على كلّ شفة ولسان، أغنية خالدة على الزمان، «شكري» باني الوحدة، ونابذ الفرقة، والعامل لجمع البدد، والمؤمن بحقّ أمّته إلى الأبد، وصانع الوطن المخلّد، وباعث المجد الموطّد.

سيّدي الرئيس،

تاريخك تاريخ هذه الأمّة، من فجر نهضتها، إلى كفاحها وثورتها، إلى حرّيّتها وسيادتها، إلى جمع كلمتها ووحدتها. فمن بغى الخير فهذه سيرة ما عرفت إلاّ في الجيل المثاليّ، العصر الأوّل من الإسلام، فليتبعها، وليستلهم أسوتها، ولينهج على مستواها.

لقد أهدى إليك سيادة رئيسنا جمال عبد الناصر هذه الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، فاسمح لي يا سيّدي الرئيس أن أهديك قولا قالته العرب عن الأحنف بن قيس، لم أجد في تاريخ العرب على طوله أصدق منه في وصفك :

هذا هو الرجل الذي يفرّ من الشرف، والشرف يتبعه.

فسلام عليك شابّا ثائرا، ومجاهدا صابرا، وزعيما مطاعا، ورئيسا جليلا، ومواطنا فريدا، قدوة في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة حميدا.

صبري العسلي.»